خلق الرحمة في الإسلام ومعانيها

د. صليحة عشي
دكتوراه في السياحة
تخصص اقتصاد تنمية

إنّ لَفْظَ "الرَّحمَةِ" مفهومٌ إسلاميٌّ أصيلٌ، وَرَدَ ذِكْرُه في القرآنِ الكريمِ في نحْو (مائتي وثمانية وستِّينَ موضعٍ)، وأوّلُ ما يلفتُ الأنظارَ في كتابِ ربِّ العالَمِينَ؛ – والذي هُو دُستورُ المسلمينَ، والأصل الأصيلُ لِمَصادرِ التشريعِ الإسلاميِّ – أنّ السورَ كلَّها فيه – باستثناءِ سورةِ التوبةِ – قد صُدِّرتْ بالبسملَةِ، وأُلحقَ بالبسملةِ صِفَتا (الرَّحمَنِ الرَّحيمِ)، وليس يخفَى على أحدٍ أنّ تصديرَ السُّوَرِ كُلِّها بهاتَينِ الصِّفتَينِ أمرٌ له دَلالتُه الواضحةُ على (أهمِّيَّةِ الرحمةِ في التشريعِ الإسلاميِّ).

إنَّ للحياةِ ركائزُ تعتمدُ عليها، وأُسُساً تنبني عليها، ومَعانٍ ساميةٌ تُناطُ بها المنافعُ والمصالحِ، ومن هذه المعاني العظيمةِ والصفاتِ الكريمةِ التي تسعدُ بها الحياةُ ويتعاونُ بها الخَلْقُ (الرحمةُ)؛ فهي (خُلُقٌ عظيمٌ، ووصفٌ كريمٌ، أُوتيهُ السُّعداءُ، وحُرِمَه الأشقياءُ).

إنَّ (الرحمةَ) ضاربةٌ في جُذورِ المخلوقاتِ، ومختلطةٌ بكيانِ الموجُوداتِ الحيِّةِ كافَّةً. والرحمةُ صفةُ كمالٍ في المخلوقِ يتعاطفُ بها الخلقُ، ويُشفقُ القويُّ على الضعيفِ؛ فيحنُو عليه بما ينفعُه، ويمنعُ عنه شَرَّه، ويتوادُّ بها بنُو آدمَ عليه السلامُ؛ فالرحمةُ في الفِطرةِ الرَّبَّانيّةِ التي خلقَها اللهُ تعالى؛ ولكنْ قد تُطمَسُ الفِطرةُ بالمعاصي فتصبحُ الرحمةُ قسوةً جبّارةً ضارّةً.

فـ(الرحمةُ) –في مجتمعِ المسلمينَ–: تلكَ القِيَمُ الأخلاقيَّةُ العمليَّةُ التي تُعبِّرُ عن تعاطُفِ الإنسانِ مع أخيهِ الإنسانِ؛ بل هي رحمةٌ تتجاوزُ الإنسانَ بمختلفِ أجناسِه وأديانِه إلى الحيوانِ الأعجمِ، إلى (الدوابِّ، والأنعامِ، والطيرِ، والحشراتِ)؛ فأساسُ الأخلاقِ في الإسلامِ الحنيفِ "خُلُقُ الرَّحمَةِ"؛ منشأُ الرحمةِ (رِقَّةُ القلبِ، وصفاءُ النفْسِ، وطهارةُ الروحِ).

أوّلاً: مُقاربَةٌ مفاهيميَّةٌ للرَّحْمَةِ في الإسلامِ

الرَّحْمَةُ (سِمةٌ بارزةٌ في شريعةِ الإسلامِ العظيمِ، وخُلُقٌ رفيعٌ من محاسنِ الدِّينِ، ومَقصِدٌ من مقاصدِ بعثةِ سيِّدِ المرسلينَ إلى العالَمِينَ)، وبها تتجلَّى معادنُ الناسِ وخيارهم، وبها يتفاضلُونَ في درجاتهم. وإنّه لَفَضلٌ عظيمٌ من اللهِ

تعالى أن يجعلَ رحمتَه لِعبادهِ مكتوبةً عليه، كتبَها هُو على نفْسه، وجعلَها عهْداً منه لِعباده، كما أنّ إخبارَه لعبادِه بما كتبَهُ على نفْسه من رحمته والعناية بإبلاغهم بهذه الحقيقة وعلمهم بها. هي تفضُّلٌ آخرُ من اللهِ عزَّ و جلَّ؛ حيث تبعثُ الاطمئنانَ في كلِّ ما يمرُّ بالمؤمنِ من ابتلاءاتٍ بأنّها ليس تخليًّا من اللهِ عزَّ و جلَّ عنه، أو طَرده جلَّ شأنُه من رحمتِه؛ وإنّما تُخفي ورائَها الخيرَ كلَّه للمؤمنِ، كما أنّها تُضفي الثقةَ في أنّ كُلَّ زلّةٍ للمسلمِ سيغفرُها اللهُ إن شاءَ برحمتـه، فلا ييأسَ أو يقنطَ مِن ذنوبِه؛ بل يُجدِّدُ توبتَه، ويزيدُ من استِغفارِه؛ ليعودَ إلى سالفِ عَهدِه مع اللهِ مولاهُ وسيِّدُه.

معنى الرَّحْمَة:

الرَّحْمَةُ لُغةً: من (رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، رَحمةً ومَرْحَمَةً) إذا رقَّ لهُ، وتعطَّفَ عليه، وأصلُ هذه المادَّة يدلُّ على (الرِّقَّة، والعطف، والرأفة)، وتَراحَمَ القومُ: رَحِمَ بعضُهم بعضاً. ومنها الرَّحِمُ: وهي علاقةُ القَرابة. وقد تُطلَقُ الرحمةُ ويُرادُ بها ما تقعُ به الرَّحْمَةُ؛ كـ(إطلاق الرَّحْمَة على الرِّزق والغَيث)[1].

الرَّحْمَةُ اصطلاحاً: (رِقَّةٌ تقتَضي الإحسانَ إلى المرحومِ)، وقد تُستعملُ أيضاً في (الرِّقَّةِ المجرَّدة)، أو في (الإحسانِ المجرَّد عن الرِّقَّة)[2]. وقيل: هي (رِقَّةٌ في النفْسِ تبعثُ على سَوقِ الخيرِ لِمَن تتعدَّى إليه)[3]. وقيل: هي (رِقَّةٌ في القلبِ، يُلامسُها الألمُ حينما تُدرِكُ الحواسَ أو تُدرَكُ بالحواسِ، أو يَتصوَّرُ الفكرُ وجودَ الألمِ عند شخصٍ آخَر، أو يُلامِسُها السُّرورُ حينما تُدرِكُ الحواسَّ أو تُدرَكُ بالحواسِّ، أو يتصوَّرُ الفكرُ وجودَ المسرَّة عند شخصٍ آخَر، ولا تقفُ الرحمةُ في الاصطلاحِ على الرِّقَّة والتعطُّفِ حتى تنتجَ القصدَ والعملَ)[4].

والرحمةُ (صفةٌ تقتضي إيصالَ المنافعِ والمصالحِ إلى العبدِ، وإنْ كَرِهَتْها نفْسُه، وشقَّتْ عليها)؛ فهذه هي (الرحمةُ الحقيقيةُ)؛ فأرحمُ الناسِ بكَ مَن أوصلَ إليكَ مصالِحَكَ، ودفعَ المضارَّ عنكَ، ولو شقَّ عليكَ في ذلكِ، فمِن رحمة الأبِ بِولَدِه: أن يُكْرِهَهُ على التأدُّبِ بالعلمِ والعملِ، ويشقُّ عليه في ذلك بالضرب وغَيره، ويمنعُه شهواته التي تعودُ بِضَرره، و(متى أهملَ ذلكَ مِن ولده كانَ لقلَّة رحمته به، وإنْ ظنَّ أنّه يرحمُه، ويُرفِّهُه ويُريحُه)؛ فهذه (رحمةٌ مقرونةٌ بجَهْلٍ)، كـ(رحمة بعضِ الأمَّهات لأبنائهنَّ بغضِّ النظرِ عن خطاياهُم)[5].

وعَرّفَها الإمامُ "شريف الجرجاني" بأنّها: إرادةُ إيصال الخيرِ؛ وهذه الإرادةُ أوَّلُ بوادرِ العملِ، فهي إذاً (كَمالٌ في الطبيعةِ يجعلُ المرءَ يَرقُّ لآلامِ الخَلْقِ، ويَسعى لإِزالتِها، ويأسَى لأخطائِهم فيتمنّى لهمُ الهِدايةَ)[6]. ويُعرِّفُها الأستاذُ

1- بن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، (بيروت: دار الفكر، الطبعة الثانية، 1998)، ص. 884.

2- أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور)، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، 2003)، ص. 230.

3- محمد الطاهر، بن عاشور، تفسير **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، 2008)، ص. 25.

4- عبد الرحمن، حبنكة الميداني، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، (دمشق: دار القلم، 1999)، ص. 5.

5- "رحمة الله أسبابها وآثارها"، **مجلة البحوث الإسلامية**، العدد 45، (1995)، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، المملكة العربية السعودية.
www.alifta.net/Fatawa/fatawaDetails.aspx?View=Page&PageID=6372&PageNo=1&BookID=2 (7/6/2015).

6- شريف، الجرجاني، **كتاب التعريفات**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1983)، ص. 68.

الدكتور "محمّد راتب النابلسيّ" بأنّها: (كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ أنواعِ العطاءِ الإلهيِّ)؛ فحينَما تكون (معافىً في بَدنِكَ) فهذه رحمةٌ، وحينما تكونُ (ذا رزقٍ مَوفورٍ) فهذه رحمةٌ، وحينما تكون (مُرتاحاً في نفسكَ مُتوازناً) هذه رحمةٌ؛ رحمةُ اللهِ عزَّ و جلَّ تشملُ كلَّ شيءٍ, (عطاؤه رحمةٌ، وتأديبهُ رحمةٌ، نِعمهُ الظاهرةُ رحمةٌ، ونِعمهُ الباطنةُ)كالمصائبِ رحمةٌ, هناك (رحمةٌ عاجلةٌ)، وهناك (رحمةٌ آجلةٌ)، هناك (رحمةٌ ماديَّةٌ)، وهناك ( )رحمةٌ معنويةٌ، وهناك (رحمةٌ روحيةٌ)، وهناك (رحمةٌ تشملُ الدنيا والآخرةَ)، يمكنُ أن نقولَ: (إنّ مُطلَقَ عطاءِ اللهِ عزَّ و جلَّ بشتّى أشكالِه, وألوانِه, وأنواعِه, وصفاتِه, مُقدَّمُهُ ومُؤخَّرُه تُعدُّ من الرحمة)[1].

فالرحمةُ: انفعالٌ خاصٌّ يَعرِضُ على القلبِ عند مُشاهَدةِ (النقصِ أو الحاجةِ)؛ فيندفعُ الإنسانُ إلى رفعِ ذلكَ؛ فمثلاً: عندما يُشاهِدُ الإنسانُ يتيماً يرتجِفُ من البردِ، أو فقيراً أضناهُ الجوعُ، أو مظلوماً يتلَّوى تحتَ سياطِ الظالمينَ تَعرضُه حالةُ الرِّقَّةِ، فيندفعُ لتغييرِ هذا الواقعِ، وهذه هي الرحمةُ. إذاً: هي الأمانُ الأوَّلُ بعد رحمتِه لِعبادِه؛ لبقاءِ هذا الجنسِ البشريِّ على وجهِ البسيطة[2].

أنواعُ الرَّحْمَةِ:

سواءٌ تمَّ هذا الفرقُ، أو لم يتمَّ من الناحيتَينِ (اللغويّةِ، والاصطلاحيَّة)، فالذي يهمُّ هو أنّ الرحمةَ الإلهيةَ على نوعَينِ؛ ألاَ وهُما:

الرَّحْمَةُ العامَّةُ: وهي التي (تُصيبُ المستحقَّ وغيرَ المستحقِّ)، يعني أحياناً تهطلُ أمطارٌ غزيرةٌ؛ هذه الأمطارُ تُفيدُ الناسَ جميعاً. وتشملُ الرحمةُ العامَّةُ كلَّ المخلوقاتِ بلا استثناءٍ من (النباتِ، والحيوانِ، والإنسانِ)– المؤمنِ والكافرِ والمنافقِ والصالحِ والطالحِ–، فلولا هذه الرحمةُ لم يفضِ الوجودُ على هذه الماهيَّاتِ (الحقائقِ)، ولم تنتقلْ من ظُلماتِ العَدمِ إلى نُورِ الوجودِ، ولم يتعهَّدَها اللهُ سُبحانَه بالإمدادِ المستمرِّ والعنايةِ الدائمة[3].

وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى هذه الحقيقةِ في قولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾. (الأعراف، ١٥٦) وقالَ جلَّ جَلالُهُ: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً**﴾، (الأعراف، ٧) وقوله تعالى: ﴿**فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ**﴾. (الأنعام، ١٤٧) وقال عزّ و جلَّ: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ (لقمان، ٢٧).

وتتجلَّى رحمةُ اللهِ العامَّةُ في هدايةِ كلِّ الخَلْقِ لِما يَنفعهُم ويَدعَمُ وُجودَهُم، وقال تعالى على لسانِ مُوسى عليه السلامُ: ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ (طه، ٥٠). ومِن تجلِّيَّاتِ رحمتِه تعالى أن جعلَها بين

---

[1]- محمد، راتب النابلسي، أحاديث رمضان 2003، "مكارم الأخلاق: الرحمة"، الدرس (32-15)، **موسوعة النابلسي للعلوم الاسلامية**، (14/11/2003)، ص. 1. www.nabulsi.com/blue/ar/print.php?art=4383

[2]- الميداني، مرجع سابق، ص. 6.

[3]- محمد، ارتب النابلسي، "العقيدة الإسلامية: أسماء الله الحسنى، اسم الله الرحمن الرحيم"، الدرس (99-29)، **موسوعة النابلسي للعلوم الاسلامية**، (1/2/1992)، ص. 3. www.nabulsi.com/blue/ar/print.php?art=3579

الزوجين قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الروم، ٢١).

وتظهرُ رحمتُه تعالى في مَغفرةِ الذنوبِ جميعاً– مهما كبرُتْ– للعُصاةِ التائبينَ المنيبينَ، وأكثرُ من ذلكَ فإنّه جلّ جَلالُه يُبدِّلُ خطاياهُم وسيِّئاتهم إلى حسناتٍ كما في قوله تعالى: ﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (الأنعام، ٥٤).

وقالَ تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ (الزمر، ٥٣). وقال تعالى: ﴿ **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴾ (الفرقان، ٧٠).

وتُعَدُّ رحمتُه الواسعةُ عزَّ و جلَّ أكبرَ علاجٍ نفسيٍّ للعُصاةِ؛ حيث يتمُّ تخلُّصهُم من عُقْدَةِ الشعورِ بالذنبِ؛ ممّا يؤدِّي بهِم إلى التمتُّعِ بالراحةِ، والصحةِ (النفسيةِ والعقليةِ)، وهذه من أكبرِ النِّعَمِ التي ينبغي أن ينتبه لها الإنسانُ العاقلُ.

الرَّحْمَةُ الخاصّةُ أنّ اللهَ عزَّ و جلَّ هو المصدرُ الأصلُ للرحمةِ؛ فهُو عزَّ و جلَّ المالكُ والوهَّابُ، المعطي والرَّزَّاقُ، فهو تعالى يهبُ رحمتَه لِمَن يشاءُ من عبادِه كما في قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾. (البقرة، ١٠٥) وقالَ تعالى: ﴿ **نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ** ﴾ (يوسف، ٥٦). ورحمتُه تعالى تختصُّ بالمؤمنينَ فقط، وتتجلَّى في (رعايتِهم، والدفاعِ عنهم، وحمايتِهم من كَيدِ الظالمينَ)؛ استناداً لِقَولِه تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ (الحج، ٣٨). وقال عزَّ و جلَّ: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ﴾ (هود، ٥٨). وقال أيضاً: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** ﴾، (هود، ٦٦). وقالَ تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ (هود، ٩٤).

والرحمةُ الخاصَّةُ هي أن يتجلَّى اللهُ جلَّ جَلالُهُ على قلبك؛ فتمرّ عليك ساعةٌ لا تُعادلها الدُّنيا وما فيها، ويقولُ عليه الصلاةُ والسلامُ: "**لِي سَاعَةٌ مَعَ رَبِّي لا يَسَعُنِي فِيهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ**"[1].

[1]- المرجع نفسه.

هُناكَ (اجتباءٌ), وهُناكَ (تقريبٌ)، وهُناكَ (مَقعَدُ صدْقٍ عِندَ مَليكٍ مُقتَدرٍ)، وهُناكَ (نُورٌ يَقْذفُهُ اللهُ في قَلبكَ)؛ فتَرَى بهِ الخيْرَ خيْراً والشَّرَّ شرَّاً، هُناكَ (شُعورٌ أنّ اللهَ يُحبُّكَ), وهُناكَ (مَشاعرُ لو وُزِّعَتْ على أهلِ بَلَدٍ لأسْعَدتْهُم)، وهذه بعضُ صُورِ رحمةِ اللهِ الرَّحمنِ الرحيمِ الواسعةِ على عِباده[1]؛ فـ(الرَّحمةُ العامّةُ يستوي فيها المؤمنُ وغيْرُ المؤمنِ)، وقد يتوقّفُ غيْرُ المؤمنِ كثيراً في هذه الأنواعِ على المؤمنِ؛ ولكنَّ الرحمةَ الخاصَّةَ حينما (يُلقي اللهُ جلَّ جَلالُهُ في قَلبكَ نُورا)، حينما (يُعلِّمُكَ اللهُ)؛ فـ(ما اتَّخذَ اللهُ وليّاً جاهلاً ولو اتَّخذَهُ لَعَلَّمَهُ)، حينما (يُلْهمُكَ اللهُ سواءَ السبيلِ)، حينما (يُلْهمُكَ اللهُ رُشْدَكَ)، حينما (يُقيِّضُ اللهُ لكَ من حَولكَ لتكونَ مَعَهُم في مَعيّةٍ وفي صُحبَةٍ طيِّبةٍ)، حينما (يجعلُ اللهُ بركَةً في مواقعِه وعندَ أهلِ الحُفّاظِ) لا عندَ أهلِ الجُحود، هذه رحمةُ اللهِ عزَّ و جلَّ[2] .

أهمية الرَّحْمَة :

تنبعُ أهمِّيَّتُها من كونِها (صفةً للمولى) عزَّ و جلَّ، وأنّها من الصفاتِ التي وَصَفَ اللهُ تعالى نفْسَه بها . وتكمنُ أهميةُ هذا الخُلُقِ في أنّه عزّ و جلَّ أوجبَها على عبادِه بالبَدءِ بها في كلِّ عَمَلٍ وفي كُلِّ حديثٍ؛ بل وفي كُلِّ صلاةٍ، وعندَ قُراءةِ القرآنِ الكريمِ : ﴿ **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ** ﴾ . فهِيَ في (أُفُقِها الأعلى وامتدادِها المطلَقِ صفةٌ للمولى) تباركَتْ أسماؤه، فـ(إنّ رحمتَه شملَت الوجودَ وعمَّت الملكوتَ)؛ فحيثما أشرقَ شُعاعٌ من علمه المحيطِ بكلِّ شيءٍ أشرقَ معهُ شُعاعٌ للرحمةِ الغامرة؛ ولذلك كان من صلاةِ الملائكةِ ﴿ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً** ﴾ (الأعراف، ٧).

إنّ (الرحمةَ خُلُقٌ كريمٌ) اتصفَ به الله، ووصفَ به نبيَّه الكريمَ، وأوصى بها عزَّ و جلَّ في كتابه؛ ليتواصَّ بها المؤمنونَ، ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾ (البلد، ١٧) . وهي الصفةُ التي مَدَحَ اللهُ بها أصحابَ رسولِ اللهِ محمَّدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ في القرآنِ الكريمِ بِقَولِه تعالى : ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ (الفتح، ٢٩)؛ ولذلك وصَّى بها النبيُّ في أحاديثَ كثيرة، وشدَّدَ على مَن تغافلَ عنها، ولم يهتمَّ بأمْرِها بقَولِه صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : "**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**"[3] . وقال أيضاً عليه الصلاةُ والسلامُ : "**مَنْ لاَ يَرْحَمِ النَّاسَ لاَ يَرْحَمْهُ اللَّهُ**"[4], وقال أيضا صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم : "**لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ**"[5] .

وهذا الذي يتَراحَمُ به العبادُ في الدُّنيا ما هُو إلاّ جُزءٌ من مئة جُزءٍ من رَحمةِ اللهِ العظيمِ التي تفضَّلَ بها على عبادِه فحَباهُم بشيءٍ منها، وقال صلّى اللهُ عليهِ وسلّم : "**جَعَلَ اللَّهُ الرَّحمةَ مِائةَ جُزءٍ، فَأمسَكَ عِنْدَهُ تِسعَةً وتِسْعينَ،**

1- المرجع نفسه.
2- المرجع نفسه.
3- محمد، بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ص. 49.
4- المرجع نفسه، ص. 51.
5- محمد، بن عيسى بن سورة الترمذي، **سنن الترمذي**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1990)، ص. 87.

وَأَنزلَ في الأرضِ جُزءاً واحِداً، فَمِنْ ذَلكَ الجُزءِ تَتَراحَمُ الخلائِقُ؛ حتّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حافِرَها عن وَلَدِها خَشيةَ أنْ تُصيبَه][1] .

والرحمةُ هي (خُلُقُ المؤمنينَ، وكمالٌ في الفطرَة، وجَمالٌ في الخُلُق، وإحساسٌ في الضمير، وصفاءٌ في الشُّعور) . (الرحمةُ صِفةُ اللهِ) عزَّ و جلَّ؛ فهوَ الرحمنُ الرحيمُ، الذي (وَسِعَ كُلَّ شَيءٍ رَحمَةً وعلماً)، و(سَبَقَتْ رَحمتُه غَضبَهُ)، وجَعلَها عَهداً منه،[2] في قوله تعالى : ﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ . (الأنعام، ٥٤) ورحمتُه تعالى شاملةٌ كاملةٌ، تفيضُ على المخلوقات وتَسَعُهُم جميعاً، وبها يقومُ وُجودُهُم وتستمرُّ حياتُهم؛ استناداً لِقوله جلَّ جلالُه : ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ (الأعراف، ١٥٦) .

إنّ هذا كُلَّهُ يُفَسِّرُ الكثيرَ من الأحاديثِ الشريفةِ التي وَرِدَتْ عن رَسُولِ اللهِ صلّى اللّهُ عليه وسلّمَ، والتي تَصِفُ رحمةَ ربِّ العالَمِينَ، ويُروى أنّ رسُولَ اللهِ عليه الصلاةُ والسلامُ قال : "**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ : إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي ، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ**"[3] .

ولا تَقتصرُ الرحمةُ في الإسلامِ على البشرِ فحسب؛ بل تتجاوزُه إلى نطاق الرحمة بالبهائم؛ فقَد أخبَرَنا رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وسلّم : "أنّ **امْرأةً بَغيًّا رأتْ كَلْباً – في يومٍ حارٍّ – يُطِيفُ ببِئْرٍ قَد أدلَعَ لِسانَهُ مِن العَطَشِ، فنزَعَتْ لَهُ بِمُوقِها – أي : اسْتَقَتْ لَهُ بخُفِّها – فَغُفِرَ لها**][4] . وقد غَفَرَ اللّه لهذه البغيِّ ذُنوبَها؛ بسببِ ما فعلَتْهُ من سَقيِ هذا الكلب، وَوَرَدَ عن النبيِّ صلّى اللّهُ عليه وسلَّمَ أنّه : "**عُذِّبَت امْرأةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتْها حتّى ماتَتْ، فَدَخَلَت النَّارَ، لا هيَ أَطْعَمَتْها وَسَقَتْها، إذْ هِيَ حَبَسَتْها، ولا هِيَ تَرَكَتْها تَأكُلُ من خَشَاشِ الأرضِ**"[5] .

ثانياً : خُلُقُ الرَّحْمَةِ في القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ المُطهَّرَة :

اشتملَ القرآنُ الكريمُ على قِيَمٍ عديدة، تشهدُ له بخُلودِه وصلاحيَّته لِـ(كُلِّ زمانٍ ومكانٍ)، كما تشهدُ لَه بأنّه لا غِنىً للبشريَّة عنه؛ حتّى تعيشَ (حَياةً سَعيدةً ومُستقرَّةً) . إنّ من بين كُلِّ القِيَمِ التي تشتملُ عليها منظومةُ القِيَمِ الأخلاقيَّة الإسلامية قيمَةٌ رفيعةُ القَدْرِ بالغةُ الأهمِّيَّة تتصدَّرُ هذه المنظومةَ، وتأتي على قِمَّتِها؛ ألا وهيَ قيمةُ "الرَّحْمَة" . وقد جاءتْ كلماتُ اللهِ عزَّ و جلَّ في قضيةِ الرحمة عامّةً شاملةً، تحوي مع قِلَّةِ ألفاظِها مَعانٍ هائلةً، وتشملُ مع إيجازِها المعجزِ كُلَّ مَن يعيشُ على ظهرِ الأرضِ؛ ألا وهيَ قيمةُ الرحمة .

---

[1]- محمد، بن إسماعيل البخاري الجعفي، **صحيح البخاري**، (الرياض: دار بن كثير، 1993)، ص. 2236.
[2]- أمينة، أحمد زاده، "الرحمة .. خلق المؤمنين"، **شبكة الألوكة**، (13/2/2013).
www.alukah.net/sharia/0/50475/#ixzz3iQModniq
[3]- البخاري، مرجع سابق، ص. 519.
[4]- أحمد، بن علي بن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، (القاهرة: دار الريان للتراث، 1986)، ص. 98.
[5]- أبو زكريا، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، **رياض الصالحين**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1998)، ص. 109.

خُلُقُ الرَّحْمَةِ في القرآنِ الكريمِ:

القرآنُ الكريمُ رحمةٌ للمؤمنينَ، وجاءتْ رحمتُه عزَّ و جلَّ تُعبِّرُ عن القرآنِ الكريمِ بأنّه رحمةٌ من اللهِ للعالَمينَ؛ استناداً لقَولِه جلَّ وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ (يونس، :٥٧). وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأعراف، ٥٢).

والرحمةُ لا تأتي إلاّ من عندِ الخالقِ سُبحانَه وتعالى؛ فهُو أنزلَها على الناسِ كافَّةً في كُتُبِه السماوية؛ ليكونَ الناسُ رُحماءَ فيما بينهُم. ويُفهَمُ من ذلكَ أنه (دونَ تدخُّلِ الخالقِ لا وجودَ للرحمةِ حتّى بينَ البَشرِ) في قولِه تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الروم، ٢١)؛ ما يعني أنّه: (مَن لَم يُؤمِنْ بالقُرآنِ الكريمِ فلنْ يحظَى برَحمةِ الرحمنِ الرحيمِ).

إنّ اللهَ كَتَبَ على نفْسِه الرحمةَ في قولِه تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الأنعام، ٥٤). ووردَتْ رحمةُ اللهِ عن أهلِ الجنَّةِ في قولِه عزَّ و جلَّ: ﴿**مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ**﴾ (الأنعام، ١٦). وفي قولِه أيضاً: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (آل عمران، ١٠٦–١٠٧).

لقَد حثَّ القرآنُ الكريمِ على التحلِّي بفضيلةِ الرحمةِ مع أحقِّ الناسِ بهذه الرحمةِ؛ وهُمُ الآباءُ والأمَّهاتُ، قال عزَّ وعلا في سورةِ الإسراء: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾. (الإسراء، ٢٣) وقالَ أيضاً: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾. (الإسراء، ٢٤) يُوصي الخالقُ بحُكْمِ هاتَينِ الآيتَينِ أن يجعلَ الإنسانُ نفْسَه مع أبويه في خَيرِ ذلَّةٍ في (أقواله وسَكناته ونظراته، ولا يحدَّ إليهما النظرَ، ولا يردَّ لهُما قولاً[1]. وأمرَ اللهُ المؤمنَ بالإحسانِ لوالديه، وقَرَنَهُ بالأمرِ بطاعتِه وبالدعاءِ لهما بالرَّحمةِ.

[1]- رمضان، عبد الرحمن، "لمحة عن مفهوم الرحمة في القران"، **موقع أهل القرآن**، (4 /11/ 2010)، www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=7248

فالرحمةُ المأمورُ بها نحْوَ الوالدَين رحمَتان؛ إحداهُما (أنّ طاعةَ الوالدين هِيَ بحَدِّ ذاتِها رحمةٌ بهما، ثمَّ الدعاءَ لهُما بالرحمةِ من الله تعالى)؛ فالأُولى (رَحمةُ لُطفٍ، ورِقَّةٍ، ومحبَّةٍ، ووفاءٍ)، والثانيةُ (رحمةُ إحسانٍ لهُما من اللهِ تعالى على ما قدَّماهُ من تربيةٍ حَسَنَةٍ لأولادِهما)[1].

وجاءتْ رحمةُ اللهِ بشأنِ المخلصينَ بقَولِه تعالى: ﴿**مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ (البقرة، ١٠٥)، وعن الصابرينَ في الحياةِ الدنيا، والَّذينَ لم يَشكُّوا لحظةً في قُدرَةِ اللهِ يقولُ تعالى: ﴿**يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ**﴾ (التوبة، ٢١). هؤلاءِ الصابرينَ الّذينَ إذا إصابتْهُم مُصيبةٌ لم يتذكَّروا غيْرَ اللهِ في قولِه عزَّ جلالُه: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ (البقرة: ١٥٦، ١٥٧).

خُلُقُ الرَّحْمَةِ في السُّنَّةِ المُطَهَّرَة:

بعثَ اللهُ تعالى خاتمَ الأنبياءِ والرُّسلِ محمَّداً رحمةً للعالَمينَ؛ فهُو الرحمةُ المهداةُ ليس للبشرِ فحسبْ؛ بل لجميعِ عوالمِ الوجودِ، وذلكَ أنّ الحقَّ تعالى كَتَبَ على نفْسِه الرحمةِ، في قولِه عزَّ و جلّ: ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾. (الأنعام، ١٢)

تجلَّتْ مظاهرُ رحمةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حتَّى شملتِ القاصي والداني، والقريبَ والبعيدَ، والصديقَ والعدوَّ، والبَرَّ والفاجرَ.. وقد استفاضَتِ السُّنَّةُ في نُصوصِها الداعيةِ إلى الرحمةِ، الحاثَّةِ عليها، المرغِّبةِ فيها؛ إمّا (نصّاً أو مفهوماً)، في شَخصِ رَسُولِ اللهِ عليه الصلاةُ والسلامُ وهو (نبيُّ الرحمةِ)، كما وَصَفَ نفْسَه فقال: "**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**"[2]. وكان من خَصائصِه صلّى اللهُ عليه وسلَّم، والتي أكرمُه اللهُ بها واختَّصَه بها عمَّنْ سِواه، تلك الأسماءُ العديدةُ، والصفاتُ الحميدةُ، ذاتُ المعاني الفريدةِ، فكانتْ أسماؤه صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ دالَّةً كُلَّ الدَّلالةِ على معانيها، ومُتجسِّدَةٍ بشكلٍ واضحٍ في سلوكِه وشؤونِه.

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: "**تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**".[3] واللهُ سُبحانه وتعالى أرسلَ نبيَّه مُحمَّداً صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ وسَكَبَ في قلبِه من (العِلْمِ والحِلْمِ، وفي خُلُقٍ من البرِّ، وفي طَبعِه من السُّهولَةِ والرِّفْقِ، وفي يدِه من السَّخاوةِ ما جعلَه أزكى

---

[1]- محمد، بن أحمد الأنصاري القرطبي، **تفسير القرطبي**، (: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،)، ص. 219.
[2]- أبو الفضل، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، **الخصائص الكبرى**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1985)، ص. 132.
[3]- العسقلاني، مرجع سابق، ص. 454.

عباد اللهِ رحمةً، وأوسَعَهُم عاطفةً و أرحَبَهُم صدْرَاً)؛ لذلكَ قال اللهُ تعالى في كتابه العزيز: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ (آل عمران، ١٥٩).

قال صلّى اللهُ عليه سلّمَ: "**لن تؤمنوا حتّى تراحموا**. قالُوا: يا رَسُولَ اللهِ! كُلّنا رحيمٌ. قالَ: **إنهُ ليس برحمة أحدكُمْ صاحبَهُ، ولكنّها رَحمَةُ العامّة**".[1] فالمسلمُ الحقُّ هو الذي يُبدي بَشاشَتَهُ، ويُظْهِرُ مَودَّتَه ورحمتَه لِعامَّةِ مَن يلقى، وقال صلى الله عليه وسلم: [**مَنْ لا يَرْحَمِ النَّاسَ لا يَرْحَمْهُ اللَّهُ**].[2] والجميعُ يرحمُ بعضُهم بعضاً، فـ(الرئيسُ يرحمُ المرؤوسينَ، والأبُ يرحمُ الابنَ، والزوجُ يرحم زوجَه، والغنيُّ يرحمُ الفقيرَ، والقويُّ يرحمُ الضعيفَ، والجارُ يرحمُ جارَه، الجميعُ يتَراحمُ فيما بينهُم).

المسحُ على رأسِ اليتيمِ؛ فعَن "أبي هُريرةَ" رضيَ اللهُ عنه أنّ رَجُلاً شكا إلى رسولِ اللهِ قَسْوةَ قلبِه فقالَ: "**إنْ أَرَدْتَ تَلْيِينَ قَلْبِكَ فَأَطْعِمْ الْمِسْكِينَ وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ**".[3] قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنّ اللهَ عزَّ و جلَّ قال: "**أَنَا اللَّهُ وَأَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا مِنِ اسْمِي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ**"[4]. وقال صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**"[5].

وقيلَ لرسولِ اللهِ: أيُّ الناسِ أفضلُ؟ قَالَ: "**أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَوْصَلُهُمْ لِرَحِمِهِ، وَآمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ**"[6].

رحمةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالضُّعفاءِ:

(أقرَّ الإسلامُ الحنيفُ حُقوقاً للضُّعفاءِ والفقراءِ والمساكين)، واهتمَّ بهِم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، الَّذينَ لا مالَ لهمْ ولا عَشيرة؛ فكان يَقْبَلُ مِن مُحسنِهم، ويتجاوزُ عن مُسيئِهم، ويَسعى في حوائجِهم، ويَرْفَعُ عنهم الضّرَّ والأذى ولو بكلمةٍ تُغضبُهم. وكانَ النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُعلِّمُ أصحابَه أنّ المالَ والوجاهةَ الاجتماعيةَ، والمناصبَ المرموقةَ لا تُضفي على الإنسانِ فَضْلاً لا يستحقُّه، و(أنّ الفقرَ وقلَّةَ المالِ والجاهِ لا يسلبُ الإنسانَ شَرَفاً يستحقُّهُ).

رحمةُ النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالعُصاةِ والمذنبينَ: إنّ أحوجَ الناسِ إلى الرحمةِ هم العُصاةُ والمذنبونَ؛ ولكنَّهُم يحتاجونَ إلى رحمةِ التوجيهِ والهدايةِ لطاعةِ اللهِ تعالى؛ فـ(إنّ الإسلامَ رحمةٌ، والهدايةَ والالتزامَ رحمةٌ)، وهناكَ أُمَمٌ تنتظرُ منكَ أن تدلَّهُم عليها، وأنْ تهديهِم بإذنِ اللهِ إليها، وأنْ تأخُذَ بمجامعِ قلوبهِم إلى اللهِ، فتَحبِّبُهم في طاعةِ اللهِ

1- نور الدين، علي بن أبي بكر الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (القاهرة: مكتبة القدسي، 1994)، ص. 187.
2- المباركفوري، مرجع سابق، ص. 554.
3- "أمور تعين على الخشوع والثبات عليه"، مركز الفتوى، رقم الفتوى 122810، **موقع إسلام ويب**، (30/5/2009). http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=122810
4- محمد، ارتب النابلسي، "صلة الرحم"، خطبة الجمعة، الخطبة 541، **موسوعة النابلسي للعلوم الاسلامية**، (22/9/1995)، ص. 2. http://nabulsi.com/blue/ar/print.php?art=5896
5- يحيي، بن شرف أبو زكريا النووي، **صحيح مسلم**، (القاهرة: دار السلام، 1996)، ص. 54.
6- إسماعيل، بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير ابن كثير**، (الرياض: دار طيبة، 2002)، ص. 388.

ومَرضاته؛ قال صلّى اللهُ عليه وسلّم: "**يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**".[1] وكلُّ ذلك يؤكِّدُ عَظمةَ هذا الدِّين، وأنّه دينٌ يُعنى بالجوانب الإنسانية كافّةً؛ لأنّ في ذلكَ سعادةَ الإنسان وأمنَه.

رحمةُ النبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ بغَيْرِ المسلِم: لقدْ شملتْ رحمةُ الإسلامِ القريبَ والبعيدَ، والمسلمَ وغيْرَ المسلم؛ فكان سُلوكُ المسلمينَ مع المحاربينَ من غيرِ المسلمينَ، أساسُه قولُه تعالى: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (الممتحنة، ٨–٩).

ثالثاً: خُلُقُ الرَّحْمَةِ من صفات البَشَر:

الرحمةُ في الإسلامِ الحنيفِ قيمةٌ أخلاقيةٌ وعمليَّةٌ تُعبِّرُ عن تعاطُفِ الإنسانِ مع أخيه الإنسان؛ بل هيَ رحمةٌ تتجاوزُ الإنسانَ بمختلف (أجناسه وألوانه) إلى الحيوان، وإلى الدوابِّ والأنعام، وإلى الطيرِ والحشرات.

الرحمةُ هِبَةٌ ورِزْقٌ ومحبَّةٌ من الرحمنِ الرحيمِ سُبحانَه يهبُه لِمَن يشاءُ من عبادِه، وهؤلاءِ الرُّحماءُ يرحمهُم اللهُ ويجعلُ لهم من التوفيقِ والتيسيرِ في أُمورهم ومعاشهم وسائرِ أيّامهم. و(الرحمةُ والتسامحُ والرِّفقُ) معانٍ راقيةٌ يجبُ أن يتحلّى ويتخلَّقَ بها الإنسانُ في تعامُلِه ومَع نفْسِه وفي مراحلِ حياته كلِّها؛ رحمةٌ لا تقتصرُ على إنسانٍ دونَ آخَر؛ رحمةٌ تتجلَّى في التعامُلِ مع المخلوقاتِ كافّةً (من أصغرِها وأضعفِها إلى أكبَرِها و أقواها)، رحمةٌ تنتقلُ من إنسانٍ لإنسان؛ رحمةٌ على الحيوانِ والنبات، رحمةٌ في الإنسانيةِ بالتعامُلِ مع كلِّ (أشكالِ البشرِ وأجناسِهم وجنسيَّاتِهم وألوانِهم).

الرَّحْمَةُ خُلُقٌ فطريٌّ ومُكتسَبٌ في الإنسان: بمعنى آخَر أنّه (خُلُقٌ وهبيٌّ وكسبيٌّ)؛ فهيَ خُلُقٌ فطريٌّ في الإنسان، فمَثلاً: عند وقوعِ حادثٍ مُميتٍ– أيّا كان نوعُه–؛ فهذا الحادثُ يُحرِّكُ الرحمةَ في قلوبِ الناسِ، فيُسارِعونَ لإغاثةِ وإنقاذِ المصابينَ، وحينما يصابُ مجتمعٌ بكارثةٍ تسارعُ سائرُ المجتمعاتِ للتضامُنِ معه من بابِ الرحمة.[2] والإنسانُ يكتسبُ خُلُقَ الرحمةِ من خلالِ التخلُّقِ بأخلاقِ اللهِ تعالى بقَدْرِ الطاقةِ البشرية، و التأسِّي بالرسولِ صلّى اللهُ عليه وسلّم؛ بمعنى اتِّباعِ تعاليمِ الشرعِ الحنيف.

والرحمةُ خُلُقٌ وهبيٌّ يهبُهُ اللهُ بقَدَرٍ لِمَن يشاءُ من عبادِه في قولِه تعالى: ﴿**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ**﴾ (يوسف، ٥٦) وقال عزَّ و جلَّ في إسحاقَ ويعقوبَ عليهما السلامُ: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا**﴾ (مريم، ٥٠). والرحمةُ والتَّراحمُ وصيَّةُ المؤمنِ لأخيه ودُعاؤه له، فما من معاملةٍ من المعاملاتِ، أو رابطةٍ من

---

[1]- أبو عبد الله، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، (بيروت: دار المعرفة، 1998)، ص. 196.
[2]- يوسف، القرضاوي، **الرسول والعلم**، (القاهرة: الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، 2002)، ص. 15.

الروابط الاجتماعية أو الإنسانية؛ إلاّ وأساسُها وقَوامُ أمرِها الرحمةُ والتَّراحمُ؛ فمن علاقة الإنسان بنفسه التي بين جنبيه وعلاقته بذَويه وأهله، إلى علاقته بمجتمعه المحيط به، إلى معاملته لجميع خَلْق الله من إنسانٍ أو حيوانٍ، كُلُّ ذلك مبنيٌّ على هذا الخُلُق الرفيع والسجيَّة العظيمة[1].

وتنعكسُ الرحمةُ على الذات وعلى الآخَرين؛ ولكنَّها تنعكسُ أساساً أيّ بشكلٍ أكبرَ على الذات التي صَدَرَ منها هذا الخُلُقُ، كما وَرَدَ في حديث الرسول صلّى اللهُ عليه وسلَّم: "**الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ من الْيَدِ السُّفْلَى**"[2]؛ وهذا تحفيزٌ من الرسول عليه الصلاةُ والسلامُ للإنسان بأن يكونَ مُسارِعاً في الخيرات، ومُبادِراً للرحمة نحوَ كلِّ الكائنات.

تنميةُ خُلُقِ الرَّحْمَة واستدامتُه في سُلوك الإنسان:

يَسعى الإسلامُ بكلِّ تعاليمه السَّمحاء لـ(تربية الإنسان على نقاء السريرة والإخلاص، والنُّصح من أجل التحرُّك بالبرِّ والوفاء، وصِلة الرَّحِم، وإكرام اليتيم والمسكين، وبرِّ الوالدين، والإحسان للجار) وغيرها من مكارم الأخلاق، وكلُّها معانٍ تُحقِّقُ الأخوَّةَ في الإسلام، وتُجسِّدُ خُلُقَ الرحمة في سلوك الإنسان.

إنّ اللهَ عزَّ و جلَّ (خلقَ الإنسانَ على الفطرة)، و(وَهَبَ له قلباً و عقلاً) ليميزَ بين الخير والشرِّ، في قوله عزَّ و جلَّ: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (الروم، ٣٠)؛ فـ(تنميةُ هذا الخُلُق وترقيتُه واستدامتُه) في سلوك الإنسان يكونُ بـ(تدريب النفْس على الشعور بمشاعر الرحمة من حين لآخَر)؛ من خلال ممارسة الأعمال التي تتضمَّنُ هذا الخُلُقَ الطيِّب، والتعوُّد على (تقبُّله ومُمارَسَته) بشكلٍ مُستمرٍّ ومُتواصلٍ[3].

إنَّ الإنسانَ (جسدٌ وروحٌ، ظاهرٌ وباطنٌ)، والأخلاقُ الإسلاميةُ تمثِّلُ صورتَه الباطنةَ، والتي محلُّها القلبُ؛ وهذه الصورةُ هي قَوامُ شخصيَّته المسلمة؛ فالإنسانُ لا يُقاسُ بطُوله وعَرْضه، أو لونه وجَماله، أو فَقره وغِناه؛ وإنّما بـ(أخلاقه وأعماله المعبِّرَة عن هذه الأخلاق، وما يزرعُ في نفْس صاحبها من هذه القيَم والأخلاق؛ مثل (الرحمة، والصدق، والعدل، والأمانة، والحياء، والعفَّة، والتعاون، والتكافل، والإخلاص، والتواضع) وغَيرها من القيَم والأخلاق السامية[4]؛ فالأخلاقُ بالنسبة للفرد هي أساسُ الفلاح والنجاح في الدُّنيا والآخرة، كما جاءَ في قوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ (الشمس، ٩–١٠)، ويقولُ سُبحانه: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** ﴾ (الأعلى، ١٤–١٥).

---

[1]- المرجع نفسه.
[2]- النووي، مرجع سابق، ص. 103.
[3]- يحيى، السيد النجار، "منهج السلوك في الإسلام"، **موقع السكينة**، (27/1/2012). www.assakina.com/studies/12424.html
[4]- محمد، الغزالي، **خلق المسلم**، (القاهرة: دار الريان للتراث، 1987)، ص. 15.

وتكونُ تنميةُ خُلُقِ الرحمةِ وترقيتُه لدى الإنسانِ بالتقرُّبِ إلى اللهِ أكثرَ؛ لأنّ ذلك من مصدرِ الخيرِ والرحمةِ؛ حيث يشملُه اللهُ بعنايته، ويفيضُ عليه من خَيره: (**عَبْدي تَقدَّمْ إليَّ خُطوةً، أتقدَّمْ إليكَ خُطوتَين**)، وهكذا يهديه اللهُ، ويَختارُه لدينه، ويُوفِّقُه للعبادةِ والخشوعِ؛ استناداً لقَولِه تعالى: ﴿**وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا**﴾ (مريم، ٥٨).

دعاءُ الإنسانِ والإلحاحُ على اللهِ تعالى في أن يَهبَه رقَّةً في القلبِ، وأن يشرحَ صَدرَه للدِّينِ القيِّمِ، في قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ (الزمر، ٢٢).

ذِكْرُ اللهِ تعالى في الشِّدَّةِ والرخاءِ، وفي كلِّ وقتٍ – سواءٌ (عندَ أداءِ العباداتِ الواجبةِ، أو عندَ القيامِ بالأعمالِ) والرحمةُ إذا تمكَّنَتْ من قُلوبِ أفرادِ المجتمَعِ وبَنيه، يَرقُّونَ للضعيفِ، و يألَمونَ للحَزينِ، ويَحنُونَ على المريضِ، ويئِنُّونَ للمُحتاجِ، وإن كان حيواناً. وبهذه القلوبِ الحيَّةِ الرحيمةِ يصفُو المجتمعُ، ويبتعدُ عن الجريمةِ، ويُصبحُ مصدرَ خيرٍ وبرٍّ وسلامٍ لِما حولَه ومَن حولَه[1].

جعلَ الإسلامُ الحنيفُ البرَّ والرحمةَ دعامةَ الإخاءِ الذي قامتْ عليه الحضارةُ الإسلاميةُ، وشملتِ الرحمةُ كلَّ ما اتَّصلَ بحياةِ الإنسانِ والحيوانِ، وكان الرسولُ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ المثلَ الأعلى للإخاءِ في أسمى صُوَرِ كماله، وهو إخاءٌ مَحْضٌ بلغَ غايةَ الإخلاصِ والسُّموِّ لا تَشوبُه شائبةٌ؛ لأنَ العدلَ يتضافَرُ فيه مع الرحمةِ، والإسلامُ إذ يضعُ العدلَ إلى جانبِ الرحمةِ يضعُ العفْوَ إلى جانبِ العدلِ على أن يكونَ عَفْواً عن مَقدِرةٍ؛ ليكونَ مظهرُ الرحمةِ صريحاً وصحيحاً[2].

أنّ التربيةَ على خُلُقِ الرحمةِ تُوجِدُ شُعوراً داخليّاً لدى الإنسانِ بأنّ الرحمةَ مُحبَّبةٌ لذاتِها، مرغوبةٌ لآثارِها الطيِّبةِ، عاجلةً كانتْ أو آجلةً.

خاتمةٌ:

تخلصُ هذه الدراسةُ إلى أنّ خُلُقَ الرحمةِ، من أخلاقِ المسلمينَ، وكان له دَورُه في تاريخِهم، وظَهَرَ أثَرُه في سِلْمِهم وحَرْبِهم، وتجلَّتْ مآثرُه في حضارتِهم وتاريخِهم؛ هذا الخلقُ الذي جعلَه القرآنُ الكريمُ عُنواناً على الرسالةِ المحمَّديَّةِ؛ فالحياةُ (تطيبُ، وتصلُحُ، وتزدهرُ) بالتَّراحُمِ والتعاطُفِ بين المجتمعِ، وتَشقى المجتمعاتُ بالتظالُمِ والعُدوانِ وفُقدانِ التَّراحُمِ. وأنّ علاقةَ الإنسانِ بنفْسِه التي بينَ جَنبيه، وعلاقتَه بذَويه وأهلِه، إلى علاقتِه بمجتمعِه المحيطِ به، إلى معاملتِه لجميعِ خَلْقِ اللهِ من (إنسانٍ أو حيوانٍ، أو نباتٍ) كلُّ ذلك مبنيٌّ على هذا الخُلُقِ الرفيعِ، والسجيَّةِ العظيمةِ.

---

[1]- محمد خليفة حسن، "العلماء: الرحمة في ديننا تشمل الإنسان والحيوان والجماد"، **يومية الاتحاد**، (15/11/2015).
www.alittihad.ae/details.php?id=106356&y=2013

[2]- المرجع نفسه.

ويبقى المؤمنُ دائماً فقيراً إلى رحمةِ اللهِ تعالى؛ فبهذه الرحمةِ الإلهيَّةِ يعيشُ في الدُّنيا ويفوزُ بالآخرَة؛ ولكنَّه يُوقِنُ أنّ رحمةَ اللهِ لا ينالها إلاّ برَحمةِ الناسِ.

ما أحوجَنا إلى هذه المعاني الإسلاميةِ السامية، وما أشدَّ افتقارَنا إلى التخلُّقِ بالرحمةِ التي تُضمِّدُ جراحَ المنكوبينَ، وتحثُّ على القيامِ بحقوقِ الوالدينَ والأقربينَ، والتي تُواسي المستضعَفينَ، وتحنُو على اليتامَى والعاجزينَ، وتُحافِظُ على حُقوقِ الآخَرينَ، وتحجزُ صاحبَها عن دماءِ المعصُومينَ من المسلمينَ وغيرِ المسلمينَ، وتصونُ أموالَهُم من الدَّمارِ والهلاكِ، وتحثُّ على فعلِ الخيراتِ ومُجانَبةِ المحرَّمات.

وما أحوجَنا إلى التخلُّقِ بالرحمةِ في هذا العصرِ الذي غاضتْ فيه الرحمةُ؛ إلاّ مَن شاءَ اللهُ، وغلبتْ فيه الأهواءُ، وأُعجِبَ فيه كُلُّ ذي رأيٍ برأيه، ولم يحْتكِمْ إلى الكتابِ الكريمِ والسُّنَّةِ النبويةِ، ولم يُراجِعْ في آرائه الراسخينَ في العلمِ؛ فالإسلامُ رسالةُ خيرٍ وسلامٍ ورحمةٍ للبشريةِ كلِّها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، دعا إلى التَّراحُمِ، وجعلَ الرحمةَ من دلائلِ كمالِ الإيمانِ؛ فالمسلمُ يلقَى الناسَ وفي قلبه عَطفٌ مَدخورٌ، وبِرٌّ مَكنونٌ، يُوسِعُ لهم، ويُخفِّفُ عنهُم، ويُواسيهِم.

يجبُ تعويدُ النفْسِ على الرحمةِ والتَّراحُمِ؛ أيّ: إظهارِ الرحمةِ من خلال التعامُلِ اليوميِّ مع الناسِ– سيَّما الرحمةَ بالوالدينِ والأولادِ –؛ لما لذلكَ من الفضْلِ عندَ اللهِ عزَّ و جلَّ؛ فالإنسانُ إذا رَحِمَ إنساناً حصلتْ عنده رِقَّةٌ، فإذا توالتْ واستدامَتْ تلكَ الرحمةُ فإنّها تصيْرُ كالملكة.

أن تُتَرْجَمَ هذه الرحمةُ في (أقوالٍ، وأعمالٍ، وسلوكٍ) المسلمِ ومُراعاته للهِ تعالى في كلِّ ذلكَ، وعملَ الخيرِ والمساهَمةِ مع الآخَرينَ في بناءِ المجتمعِ، واحترامِ الآخرينَ، وبذلك تسودُ المحبَّةُ والتقديرُ جميعَ البشرِ. والأخلاقُ المثلى عمادُ الأممِ وقَوامُ الشعوبِ، والأممُ باقيةٌ ما بقيتْ أخلاقها. والمسلمونَ يستمدُّونَ رحمتهُم من اللهِ تعالى، الذي سمّى نفْسَه "**الرَّحمَن الرحيم**". اللهم اجعلْنا رحماءَ، وأصحابَ حِنْكةٍ وحِكمةٍ وحَياءٍ. اللهُمَّ آمينَ.